الشعب الذي استوطن تلك البلاد. اللّهمّ إن تيسّر لك، مثلما تيسّر لي، أن تملك لغته، وأن تقف على تاريخه، وأن تؤاكله وتشاربه، أو كما يقولون في روسيا، أن «تمالحه وتخابزه» فتفهم مشكلاته، وتتغلغل في نفسيته، فلا تفوتك معتقداته وخرافاته، وطقوسه وعاداته، ولا تخفى عليك مواطن ضعفه وقوته. وإذ ذاك فأنت لا تملك نفسك عن حبّه.

لم يمضِ على وجودي في روسيا غير بضعة أشهر، حتى فارقني ذلك الشعور الذي يلازم الأجنبي في بلاد ليست بلاده ـ شعور الغريب بين قوم غير قومه. ذاك لأنّ الذين حللت بينهم ما لبثوا أن انتزعوا منّي ذلك الشعور بما في طبيعتهم من لطف وصدق وبساطة وعطف على الغريب. فلا ادّعاء، ولا صلف، ولا خبث، ولا تكتّم... بل قلوب مفتوحة وأكفّ مبسوطة.

ليس الكلام عن أي شعب من الشعوب بالأمر السهل مهما يحاول المتكلّم الإنصاف والدّقّة. فما من صفة اتّصف بها شعب كلّه. فهي قد تنطبق على فئة منه دون فئة، فتصدق هنا ولا تصدق هنالك. وأنا إذ أكلّمك عن الشعب الروسي لا أريدك أن تفهم أني أكلّمك عن كلّ روسي في روسيا. بل جلّ ما أستطيعه هو تبيان بعض الصفات العامة التي